الإسلام والتطرف بين فقه الهوامش وضوابط الأصول

العميد الدكتور عبد الغني عماد*

تجمع الحضارات علاقة تفاعلية تقوم على التبادل والتعارف والتكامل وبهذا فإن الحوار بين الحضارات ليس ظاهرة مصطنعة بقدر ما هو ظاهرة لازمة بنيوياً وعضوياً لكل منها حيث الواحدة تتنفس من فضاء الحضارات الأخرى، أدركت ذلك أم لم تدرك. والبارز في مقاربة الأديان أنها تركز على التغيير الذهني والأخلاقي والسلوكي لدى الأفراد، وتدفع باتجاه إعادة صوغ الحياة العامة للسير في هذا التغيير الذي يتأسس على قناعات ذاتية ووعي داخلي بدرجة أولى. لكنها تولّد أمرين في مسيرتها: القيم الأخلاقية والأحكام الظاهرة التي تترتب على تلك القيم وتخضع للاجتهاد الإنساني. فالقيم الأخلاقية مثل (الكرامة والحق والمساواة والعدل والخير والحرية..) تمثل ثوابت أساسية أطلق عليها الفقهاء المسلمون: مقاصد الشريعة.

تخاطب الشريعة الإسلامية الإنسان باعتبار أن المستقر في طبيعته أو فطرته هو هذه القيم بالذات، لذلك فإن صون هذه القيم هو من الضرورات المؤدية إلى استمرار الاجتماع الإنساني وازدهاره، وان هذه القيم لا تعني بالضرورة انتفاء التنوع والاختلاف الذي ندرك منحاه التفاعلي في الخطاب القرآني: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين. إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾[1]. يترسخ هذا الاتجاه المؤكد لقاعدة التعارف والتثاقف بقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[2] إلى أن يتصل بما ينتظم فيه الاختلاف على قاعدة قوله تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾[3]. بالاحتكام إلى هذا النسق الدلالي الجامع والمنطوق السياقي المركب ندرك أولوية المنظومة القيمية القرآنية التي تحدد منزلة الاختلاف والتعارف والاعتراف في خطاب الوحي والتي تنطلق من مبدأ التكافؤ الإنساني بين الذات والآخر المختلف الرافض لحصرية التكليف في جماعة أو أمة من الناس، استناداً إلى خلفية التفاعل والتكامل بين الحضارات وليس الصراع أو الصدام بينها. ما يميز الخطاب القرآني أنه نظر إلى الاختلاف باعتباره نمو وتدافع ضمن الحضارة الإنسانية المتواصلة الواحدة التي تعلي من شأن إنسانية الإنسان في مواجهة الظلم والاستعباد بمركزيتها على الذات[4]. لذلك كانت غاية الاختلاف ومآل التعارف قرآنياً هو

---

* عميد وأستاذ الدراسات العليا في معهد العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية.

[1] – هود: 118– 119.

[2] – الحجرات: 13.

[3] – الممتحنة: 8.

[4] – أحميدة النيفرة: منزلة التعارف والاعتراف في منظومة القيم القرآنية، مجلة التفاهم العدد 36، الصادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عمـــان – مسقط، عدد ربيع 2012، ص32.

الاعتراف بخصوصية الآخر وكرامته وإنسانيته، واعتبار أن مقاربته المختلفة مشروعة، ومن شأنها أن تكون ثرية وزاخرة بغنى التوازن الذي لا مندوحة عنه من أجل رقي الحياة البشرية.

لذلك يجب أن نعترف بأن فكرة التسامح بقدر ما هي بسيطة وشفافة ومثالية في طرحها وحضورها، هي كارثية ومدمرة وقاتلة في غيابها، لذلك هي ليست قيمة ثانوية أو هامشية في الأديان السماوية، بل هي قيمة ثابتة وأصلية، إنها قيمة بنيوية ووجودية، ويندرج وجودها في الحياة بضرورة الوجود نفسه. فهذا "التعارف" والتفاعل والتثاقف بين البشر الذي بيّنه القرآن لا يمكن أن يتم على قاعدة القطيعة المعرفية مع الآخر المختلف والموّلدة للتعصّب والتطرّف.

تستدعي هذه المقاربة بخلفيتها المنهجية ومبادئها الموجهة في وقت تواجه العولمة بتحدياتها كل المجتمعات الإنسانية بتحديها وتطرح عليها أسئلة كثيرة. أهمها: كيف يمكن أن نعيش سوياً ومختلفين؟ ولعل محاولة الإجابة على هذا السؤال الكبير من الأهمية بمكان ما يجعلها تستحق أن تتقدم على غيرها، فالتعصب والتطرف الظاهر والمقنع يكاد يصبح في عالم اليوم ثقافة من نوع خاص. التعصب الديني ظاهرة إنسانية تحركها مجموعة من الحوافز، ترتبط بشكل أو بآخر بالوضع الإجتماعي والإقتصادي والسياسي والنفسي. فالبطالة، والظلم الإجتماعي، والقهر السياسي، والشعور بإنعدام البديل، كلها حوافز دافعة لتوليد ظاهرة التطرف والتعصب، ومن ثمّ العنف الذي يعبر عنه بأشكال وصور مختلفة.

ولطالما كان التطرف والعنف ظاهرة ملازمة لكل المجتمعات عموماً، يحتل موقعاً هامشياً في أغلب الأحيان، لكنه يتقدم ويتضخم ليكتسح الموقف في ظروف معيّنة. إنه ظاهرة كامنة لا تستيقظ إلاّ تحت وطأة ضغوط إجتماعية وإقتصادية وسياسية، قد تأخذ شكل إنفجارات لكنها لا تلبث أن تعود إلى الكمون، وإلى إحتلال موقعها الهامشي بإنتهاء الضغوط التي تسببت بإيقاظها أساساً، لذلك يعتبر التعصب والتطرف والعنف حالة "ظرفية" في تاريخ الشعوب والأمم.

وفي هذا المعنى لا تخلو بقعة في العالم من مظاهر التعصب والتطرف الديني أو العرقي أو السياسي. وإذا كان بعض الكتاب يركز على ربط فكرة التعصب والتطرف بالإسلام واعتبارها ملازمة له كدين، فإن هذا الأمر يتضمن الكثير من العنصرية التي تكشف أنه إذا كان التعصب والتطرف حالة ظرفية في تاريخ الشعوب والأمم إلاّ أنه حالة "طبيعية" ملازمة للفكر الصهيوني والمشروع الإستعماري، فكلاهما يقوم على إلغاء "الآخر" وإستلابه بالقهر والعنف، فهما بهذا يمثلان التطرف بشكله الحاد والفظ.

وعليه فإن التعصب ومظاهر التطرف الديني التي تشهدها بعض المجتمعات الإسلامية ليست إلاّ مظاهر ظرفية، مرتبطة بمناخ سياسي وإجتماعي محدد، تزول بزواله، وتستمر وتقوى، ببقاء هذا المناخ. وإذا كانت بعض الحركات الحزبية الإسلامية قد غرقت في متاهات التطرف، فإنها دون أن تدري تقدم خدمات كبيرة للقوى المعادية للإسلام. مع ذلك لا بد من الإعتراف أنه بعد 11 سبتمبر/أيلول 2001 حدث تحول هام على مستوى الحركة الإسلامية، إذ بدأت بعض خصائصها تتبنى تنظيرات جديدة في ميدان العنف والعلاقة مع الآخر. مما يفرض أن نتوقف ملياً أمام هذه الظاهرة التي بدأت تشوه مسارات العمل الحركي الإسلامي في السنوات الأخيرة.

ماذا يعني التعصب والتطرف؟

قبل الإجابة على هذا السؤال لا بد من القول أنه منذ أن أصبح للإنسان تاريخ، ومشكلة الجماعات الأخرى موضوع يستقطب اهتمامه، فهو اما ينظر الى هذه الجماعات بالشك والريبة، والتي تتحول في بعض الأحيان

الى عدوان أو صراع، وإما بالإعجاب المقرون بالمهابة، والإنسان متماهياً في جماعة، في كلا الحالتين يقوم بتصنيف سلوك "الآخر" ويعمم عليه أحكاماً ومواصفات تختزل هذا "الآخر" وتنمّطه فيما يشبه القوالب الجاهزة. عملية التنميط والاسقاط هذه، كنوع من النشاط التصنيفي يمارسها مختلف الناس بدرجة أو بأخرى، وهم عندما يمارسون ذلك لا يختصون في الحقيقة جماعة دون أخرى، بل هو نشاط يشمل مختلف الجماعات بل والأفراد أيضاً.

ويصبح هذا النوع من النشاط أكثر ديناميكية، عندما يقع التنافس ويدّب الصراع، حينها يتحوّل "الآخر" إلى عدو وتتم أبلسته، وتلصق به كل أنواع وصور السلوك الشرير، مقابل الخير الذي تحمله "الأنا". هذا النوع من النشاط يمكن أن يكون فطرياً وذهنياً ويمارس كآلية دفاع ذاتية، لكنه يصبح مدمراً وقاتلاً حين يتم تنظيمه ومأسسته وتأطيره في استراتيجيات ثابتة للجماعة.

لماذا تلجأ الشعوب الى تنميط وتصنيف "الآخر"؟ لا شك ان هذا النوع من النشاط الذهني له وظيفة توافقية وتكيفية، فهو يختزل الوقت والجهد لأنه يقدم للفرد والمجتمعات أطراً عامة ومرجعيات ذهنية جاهزة للتعامل مع الآخرين والتنبوء بسلوكهم وردود أفعالهم. لقد كوّن البشر أحكاماً وانطباعات عن الجماعات والثقافات الأخرى وقاموا بتنميطها ونمذجتها قبل أن يبدأ العلماء بهذا النوع من النشاط بشكل منهجي فيما عرف بعد ذلك بدراسات "الشخصية القومية" والاتنوسيكولوجيا والانتربولوجيا الثقافية وغيرها. في هذا السياق يمكن أن نفهم المعنى السوسيولوجي للتطرف والتعصب في سياقه ووظيفته داخل بنية الاجتماع الإنساني وآليات اشتغاله في دينامية الجماعة.

في هذا السياق ينشأ التطرف والتعصب، وهو ظاهرة لا ينفرد بها شعب دون سواه، ولا طائفة من البشر دون غيرها، ولا أتباع دين أو معتقد سياسي محدد دون غيره. وجد التطرف في الواقع عند كل الشعوب وموّرس بأشكال مختلفة من قبل أفراد وجماعات على اختلاف أجناسها.

ولا شك أن "التطرف" اليوم من أكثر المصطلحات شيوعاً وتداولاً، مع ذلك لا تزال هناك حاجة لتعريف ما تعنيه هذه الكلمة لسببين الأول أن المعاجم العربية لم تضع تعريفاً كافياً لها، إذ لم يرد لها ذكر في القاموس المحيط أو الصحاح، وما جاء في لسان العرب لم يزد عن القول "رجل طرف ومتطرف لا يثبت على أمر" وفي المعجم الوسيط: "تطرف في كذا تجاوز حد الاعتدال ولم يتوسط". الثاني يتمثل في أن التعريف حاجة يوجبها المنهج لكي يكون هناك مرجع محدد الدلالة.

في مقاربة علم النفس الاجتماعي يعتبر التطرف نزعة تنشأ مع الذات مصاحبة لتكوينها، والعوامل الخارجية مهما كانت ضاغطة لا تخلق بذرة التطرف إذ لم يكن من طبيعة متلقي هذه العوامل الاستعداد والقابلية للتطرف. إلا أن تأثير مثل هذه العوامل (مثل التربية والتعليم والبيئة الدينية والاجتماعية) له أثر كبير في ذلك الاستعداد لجهة تحويله من وجود بالقوة إلى وجود بالفعل أو أضعافه إلى درجة الانحلال.

والواقع أن التطرف والتعصب والغلو مصطلحات ذات مدلولات واحد أو متقاربة عند كثير من الناس، لكن الأقرب إلى الدقة هو أن التعصب والغلو فرعان لشجرة التطرف وثمرة من ثمارها.

فالتعصب Fanaticism يتعارض مع مفهوم التسامح والاعتدال، ويتم اعتناقه دون اعتبار للدلائل الفعلية أو دون أخذ الوقت الكافي والعناية اللازمة للحكم على الموقف بإنصاف، وقد يعرّف بأنه الحكم السلبي تجاه أفراد ينتمون إلى مجموعة إجتماعية معينة، حيث ينحو الأفراد المتعصبون إلى تحريف وتشويه وإساءة تفسير بل وتجاهل الوقائع التي تتعارض مع آرائهم المحددة سلفاً، فقد يعتقد الشخص المتعصّب مثلاً أن جميع الأفراد المنتمين إلى أصل قومي أو دين أو مذهب أو عرق أو جنس أو منطقة في بلد ما، كسالى أو أغبياء أو عنيفون

أو جشعون أو جبناء، وحسب قاموس "لاروس" الفرنسي، المتعصّب يتبنى الرأي بحماسة "عمياء ومشاعر جارفة". وتبيّن الدراسات حول التعصّب أن الأشخاص الذين لديهم أحكام مسبقة تجاه جماعة ما، سرعان ما يصدرون مثل هذه الأحكام تجاه أي جماعة أخرى، ويعبرون عن هذه العداوة ضد مختلف الفئات التي يتباينون عنها.

ويلاحظ أن الأشخاص المتعصبين غالباً ما تكون لديهم أحكام مسبقة عن الآخرين، مصحوبة بسوء طوية عميقة وحقد شديد تجاههم، وتعرف هذه الشخصيات بأنها شخصيات عصبية سلطوية، تتميّز بأنها كارهة، وذات رؤية كونية عنيفة وعدوانية ولديها تطور مثالي للسلطة وفكر متجمد[1].

يكشف التعصب خضوع الفرد لسلطة الجماعة التي ينتمي إليها، مع ميل خفيّ إلى نبذ الآخر ورؤية العالم في إطار جامد من الأبيض إلى الأسود وقبول إستخدام العنف في التعامل معه.

فالتعصب حالة خاصة من التصلب الفكري أو الجمود العقائدي والأساس فيه يرتكز على عدة عمليات ذهنية ونفسية مترابطة، حيث يقوم المتعصب بممارستها دون إدراك ومنها:

- الحكم المسبق Pre-judging دون التحقق في أسباب هذا الحكم ومبرراته ودواعيه.
- التعميم Generalization الذي يشمل الجماعات الأخرى منطلقاً في الغالب من سوء الحكم.
- الإسقاط Projection ومن خلالها يعزو فيها الفرد دوافعه وأفكاره المشحونة بالخوف إلى الغير تهرباً من الإعتراف بها أو تخفيضاً لما يشعر به من الإدانة الذاتية. ويعد الإسقاط من أساليب التبرير والدفاع عن الذات[2].
- التنميط Stereotype ويمكن أن تسهم عدة عناصر في تشكيل مشاعر التعصب وتحوله بالتالي إلى موقف التطرف ومنها: التنافس، الأفكار الدينية، الخوف من الغرباء، التشدد القومي، وقد ينشأ التعصب عندما تخشى مجموعة ما أن يحرمها تنافس مجموعة أخرى من الهيبة والمزايا والقوة والسياسة أو الفرص الإقتصادية، وهو يؤدي إلى حالة مرضية على المستوى الفردي والجماعي تدفع إلى سلوكيات تتصف بالرعونة والتطرف والبعد عن العقل والإستهانة بالآخرين ومعتقداتهم، الأمر الذي يؤدي إلى شقّ وحدة الأمة وإنكار الحقوق الإجتماعية والسياسية للفئات الأخرى وهدم البنى الإجتماعية[3].

والتطرف ليس كما يشاع خروجاً عن المألوف الذي تعارف عليه الناس أو المجتمعات في فترة زمنية ما. وإلاّ أصبح كل تطور حضاري في المجالات الإجتماعية والعلمية والثقافية والسياسية تطرفاً، لأن هذا التطور يتضمن خروجاً عن المألوف الذي اعتاد عليه الناس.

بل إن الأديان السماوية نفسها كانت خروجاً عن المألوف وقت نزولها.

التطرف هو الجمود والإنغلاق العقلي، إنه فهم مغلق للعقائد، يتخذ حاكماً للسلوك، يتسم بعدم القدرة على تقبّل الآخر بل يجنح إلى إلغائه. وإذا كان التطرف ذا منشأ ديني أو مذهبي أضاف ذلك هالة من القداسة تجعله يرى كل مخالفة له أو نقد عملاً من أعمال الشيطان. وفي هذا يتكيف العقل ليصبح شاهد زور لما ينحاز إليه. لا يعني هذا ان المتطرف شرير بطبعه، فما يحركه في كثير من الحالات دوافع يعتقد بقدسيتها أو نبلها.

---

[1] – خلدون النقيب: المشكل التربوي والثورة الصامتة، دراسة في سوسيولوجيا الثقافة، المستقبل العربي، العدد 174، أغسطس 1993، ص61– 65.

[2] – أحمد زكي بدوي: معجم مصطلحات العلوم الإجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، ص 331، (1977).

[3] – علي أسعد وطفة، عبد الرحمن الأحمد: التعصب ماهية وإنتشاراً في الوطن العربي، عالم الفكر، العدد 3، المجلة 30، يناير/ مارس 2002، ص 84.

والتطرف في الدين هو الغلو والخروج عن التوسط والبعد عن الإعتدال لهذا قال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي: لكل فضيلة رذيلتان هما الإفراط والتفريط، والكمال هو الإعتدال، ومعيار الإعتدال هو الشرع والعقل. والقرآن الكريم يخاطب المؤمنين:﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾[1]. ومن البديهي أن التعصّب والتطرف والغلو نقيض الوسطية والإعتدال، وهو لا يمكنها من لعب هذا الدور القرآني، فضلاً عن أنه جنوح عن المنهج القرآني القويم وإنحراف عن الصراط المستقيم.

مجتمع الإيمان يضاد التطرف والغلو

وقد كان للرسول عليه الصلاة والسلام موقف حاسم وحازم من التطرف والغلو فقد تصدى في حياته لهذه الظاهرة ولم يسمح لها بالنمو، وله العديد من المواقف والأحاديث في هذا المجال منها: ما ورد في حديث ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلّم قال "إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين"[2]. وأيضاً ما ورد في حديث ابن مسعود عنه صلى الله عليه وسلّم أنه قال "هلك المتنطعون"[3] ثلاث مرات والمتنطعون المتشدقون المغالون الذين شددوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم. وكذلك ما ورد في حديث سهل بن حنيف عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قال: "لا تشددوا على أنفسكم فإنما هلك من كان قبلكم بتشديدهم على أنفسهم، وستجدون بقاياهم في الصوامع والديارات"[4].

والواقع انه يمكن اعتبار اللحظة التاريخية لما يعرف بـ "الصحيفة" أو وثيقة "المدينة" من اللحظات المؤسسة للعلاقة مع الآخر المختلف دينياً، والتي يمكن القياس عليها حيث لا قسر فيها ولا عنف، فقد كانت بمثابة الركن التأسيسي الأول لنشأة المجتمع الإسلامي في التاريخ، ذي الطابع التعددي، الذي يلتمس وحدة البشرية التي خلقها الواحد الأحد جلّ جلاله، من نفس واحدة، ثم جعلها شعوباً وقبائل لتتعارف وتتنافس في الخير.

"الصحيفة" بمثابة دستور وضعه الرسول لدولة المدينة يحدد لها نظام العمل في شؤونها الداخلية والخارجية، دستور كامل يبيّن الحدود الجغرافية ويحدد القبائل التي أخذت تنضم إليها من حول المدينة.

والقارئ المدقق للصحيفة يرى فيها ما يشبه الإعلان الرسمي بقيام دولة قانونية وفق معايير ذلك الزمان. فالصحيفة تحدد واجبات أعضاء هذه الجماعة وحقوق كل منهم، العدل والبرّ، ولهم الأمن على النفس والمال والجماعة (القبائل كلها، مسلمين ويهود)، هي التي تقوم بحماية الأمن داخلها (ويد المؤمنين جميعاً على من ابتغى دسيسة أو فساداً بينهم) والجماعة متعاونة لمساعدة المحتاج والمدين والمريض، وهي ملزمة بمعاونته في فداء أو أسر، وكل مجموعة قبلية من أهل المدينة مسؤولة عن الأمن في مواطنها وعن حماية المدينة من ناحيتها، والأمة كتلة واحدة. ولا تعقد جماعة صلحاً إلاّ بإتفاق الجماعة. لقد وضع الرسول (صلى الله عليه وسلّم) دستوراً للدولة نظّم فيه شعب دولته، وحدد العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، وبيّن فيه الحقوق والواجبات على مواطني الدولة (اليهودية بقبائلهم – القبائل المتفرّقة – الأوس والخزرج – المهاجرين). ولعلّ أهم مضامين هذه الصحيفة أباحتها لحرية العقيدة والإقامة والتنقّل، ومزاولة الحرف دون تقييد، ما دامت هذه الحريات لا تضرّ مصلحة المجموع وتراعي المبادئ الأخلاقية في السلوك الفردي وفي العلاقات الإجتماعية.

---

[1] – سورة البقرة: 143.

[2] – رواه أحمد والنسائي وابن ماجة وإسناده صحيح.

[3] – رواه مسلم في صحيحه.

[4] – رواه الطبراني في الكبير والأوسط.

ومما لا شكّ فيه أن هذه الوثيقة – الدستور تعتبر إنجازاً حضارياً لم تشهد البشرية مثيلاً لـه في عمرها الطويل، فهي وفرّت مسلكيات اجتماعية غير معهودة قطعت مع معتاد العلاقة بين الغالب والمغلوب، حيث أتاحت في أول اختباراتها في دولة المدينة "النبوية" حق التواجد لأهل الكتاب من يهود ونصارى، ثم في مرحلة لاحقة إمتدت التجربة لتشمل شبه الكتابي من صائبة ومجوس ولتغطي أمصار عدة عرفت التمازج والتعدد الديني حينها. لهذه الأسباب، جاء مبدأ "التعارف" الذي أقره الإسلام وطبقه مع ضمانة الحرية والكرامة للأفراد والجماعات غير المسلمة تحولاً هائلاً على المستوى المعرفي والسلوكي، ارتفع معه سقف الحرية الدينية بالنسبة لأتباع الكنائس الشرقية بعد رفع التهديد البيزنطي عنهم بما لم يشهدوا لـه مثيلاً في سابق عهدهم.

والواقع أن الغلو والتطرف ظاهرة مرتبطة في الذهن العربي بالفتنة الكبرى في التاريخ الإسلامي. وقد خط بها الخوارج نهجاً في التكفير لا تزال آثاره محفورة إلى اليوم في عقل المتطرفين وسلوكهم وقد داخلها شيء من العصرنة والحداثة.

"لا حكم إلاّ لله" صيحة رددتها أفواه الخوارج في "صفين" فشقّت الصفوف وزرعت الخلاف. وهي صيحة لا يزال يرددها إلى اليوم المتطرفون يشقون بها الصفوف. ويتناسى هؤلاء ذلك الرد الحاسم والقول المشهور من الإمام علي بن أبي طالب (ع) لمّا سمع هذه الصيحة قال: "كلمة حقّ يراد بها باطل، وإنما مذهبهم ألا يكون أمير، ولا بد من أمير، براً كان أو فاجراً، نعم لا حكم إلاّ لله، ولكن الأمر لمن؟".

وخرج الخوارج من بين الصفوف، وأطلقوا على أنفسهم إسم "الشّراة" أي الذين يشرون أنفسهم إبتغاء مرضاة الله، لكنهم انحرفوا تطرفاً وغلواً وحكموا بالكفر على معاوية وعلي (ع). بعدما كان هؤلاء من أشدّ المناصرين للإمام علي قبل التحكيم. ولكنهم كفّروه مع من قبل بالتحكيم وكانت صيحتهم الآنفة الذكر. ثمّ إزدادوا غلوّاً وتطرفاً فكفّروا كل المسلمين الذين لا يتبعون رأيهم وإستحلوا دماءهم وأموالهم ونساءهم. كما اعتبروا دار مخالفيهم دار حرب ينطبق عليها ما ينطبق على الكفار. مع ذلك رفض الإمام علي تكفيرهم وأكد في أكثر من مناسبة على إسلامهم وحقوقهم. وحين سئل هل كفروا؟ أجاب: "من الكفر فروا، قيل: فمنافقون؟ فال: ان المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً وهؤلاء يذكرون الله كثيراً. قيل: فما هم؟ قال: قوم تأولوا فأخطأوا"[1]. للإمام علي انه قال أيضاً: "هلك فيّ اثنان محبّ غال ومفرط قال".

ما يمكن استنتاجه في هذا المجال، إن البيئة الحاضنة والمولدّة لثقافة التطرف والغلو والتعصب، لا تنبت إلاّ في مناخ الفتنة والإنقسام، حدث مثل هذا في حالة الخوارج كما حدث في حالات مشابهة عديدة في تاريخنا الإسلامي. ولا يستمر ويتعاظم التطرف والغلو إلاّ في جوّها المسموم والمزروع بالفرقة والتنازع والأحقاد والاقتتال.

الجهاد: بين المقصد الدعوي والتسييس الحزبي

يقود التطرف والغلو إلى إثارة الفتن والعصبيات والانقسامات، ويدفع بالنفوس إلى ممارسات إقصائية والغائية لا تتورع عن استخدام العنف في شكلية الرمزي والمادي، ويحتاج تظهيره إلى استراتيجيات وآليات، تبدأ بإضفاء المشروعية الدينية والتاريخية على تمظهراته وتجلياته، وتنتهي بسلوكيات تضامنية مشتركة ضد جماعة أو جماعات أخرى.

[1] – المجموع للنووي: 193/19.

ولعل موضوع الجهاد من أكثر المواضيع استخداماً في هذا المجال، نظراً لما يحمله هذا المفهوم من دلالات معرفية ورمزية ودينية. فالجهاد في الإسلام واسع الدلالة ومتعدد الأنواع، وهو بلا شك لا يقتصر على قتال الأعداء، وقد ورد لفظ الجهاد ومشتقاته في حوالي أربعين آية قرآنية تضمنت معاني مختلفة ومتعددة. فهو من أعمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحق، وأعمال البر، ومقاومة الظلم والعدوان، وهو جهاد النفس الذي اعتبره النبي (صلعم) أفضل الجهاد، لكن أفضل الجهاد أيضاً كما جاء في حديث آخر "كلمة حق عند سلطان جائر". وهذا ما يؤكد على تعدد أنواع الجهاد وان المفاضلة بينهما حاصلة بأمر الله.

الجهاد بهذا المعنى لا يمكن اختزاله في الجانب الحربي أو القتالي، انه نظام معرفي متكامل، يبدأ بجهاد النفس وتهذيبها من خلال العبادة والتأمل والدرس ليشمل البعد المدني والاجتماعي والمعاملة مع الآخرين، وصولاً إلى الجانب القتالي والتدريبي والمرابطة على الثغور وحماية البلاد والعباد.

ويكون الجهاد كما أوضح أغلب الفقهاء على مستويين: **فرض كفاية**، أي يكفي أن يقوم به بعض المسلمين لكي يسقط كفريضة واجبة عند الباقين، لكنه يكون أيضاً: **فرض عين**، أي واجب على كل المسلمين في كل مكان، يؤثم تاركه ويكفّر الناكر له عند البعض. أما من يحدد طبيعة الجهاد وهدفه وتوقيته وموضوعه وفي أي مستوى هو (فرض كفاية أو فرض عين) فهذه مسألة خلافية في غياب الدولة الإسلامية والخليفة أو الإمام. ولذلك أصبحت فتاوى "الواجب الجهادي" استنسابية، وحزبية، وفوضوية في غالب الأحيان، تصدر لخدمة أجندات سياسية أكثر من كونها علمية أو فقهية مجردة عن الغرض والهوى.

والواقع أنه لم يتعرض مفهوم لسيل عارم من الإساءات إليه وإلى المسلمين من خلاله كما تعرض له مفهوم "الجهاد"، وذلك من خلال الاستقطاب بين فئتين الأولى جعلته حرباً ضروساً تشنها على العالم كله حيث الناس عندها كفار وأعداء ما داموا غير مسلمين، والثانية عطلته كلية أو جعلته ذا وظيفة حزبية أو مذهبية أو سياسية.

فالأصل أن الإسلام دعوة إلى السلم ويكره الحرب، لكنه لا يستطيع منعها ولهذا يدعوا المسلمين أن لا يخوضوها إلا إذا فرضت عليهم. وهو عمل على الحد من كوارثها وأضرارها ووضع لها قواعد وأخلاقيات، ومنها الوفاء بالعهود وتحريم الغدر والعدوان وإحسان معاملة الأسرى والمدنيين، وعدم التعرض للأملاك والعقارات والمحاصيل و...

في الواقع ثمة التباس عند البعض قديماً وحديثاً في غاية الجهاد وهدفه، وهذا الالتباس يلخص الإشكالية التي يعمل من خلالها العقل الاقصائي المتطرف في قراءته للنص الإسلامي، فهو لا يرى أن الجهاد في الإسلام غايته درء العدوان، أي تأمين حرية الدعوة وحرية التدين للمسلمين ولغيرهم، بل غايته محو الكفر من العالم، وفي هذا استعادة لنقاش قديم بين الفقهاء حول طبيعة الجهاد في بنية الإسلام. أي هل هو فرض على المسلمين "ابتداء" أن يقاتلوا الكافرين حتى يدخلوا الإسلام أو يخضعوا لسلطانه "صاغرين"، وهذا ما يدخل تحت عنوان "**جهاد الطلب**"؟ أم هو من طبيعة سياسية تقتضيها ضرورات الدفاع عن دار الإسلام لصد المعتدين عليها والدفاع عن المسلمين وهو ما يسمونه بـ "**جهاد الدفع**"؟.

هذا التقسيم الفقهي القديم الذي درج عليه جمهور الفقهاء، أدى إلى تباين واختلاف في الرأي، نتج عنه أن أصبح "جهاد الدفع" محل إجماع، في حين أصبح "جهاد الطلب" محل اختلاف ونظر منذ الإمام الشافعي قديماً وحتى أبو الأعلى المودودي وسيد قطب تيار الجهاد العالمي حالياً. وهذا التيار يستند في مواقفه إلى تأويل وتفسير أدلة من الكتاب والسنة ومن وقائع التاريخ، تتلخص في الآيات الداعية إلى مقاتلة المشركين كافة

﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾[1] و ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾[2] و ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾[3] واختلفوا في أي منها الآية التي دعوها بآية السيف التي نسخت في رأيهم كل ما يخالفها من آيات ناهزت المائتين تدعو إلى الرحمة والعفو وحرية المعتقد والنهي عن الإكراه والقسوة، وتحيل المحاسبة على العقائد إلى الله سبحانه. كما يستندون إلى بعض أحاديث النبي (صلعم) ويجدون في غزواته وفي الفتوحات الإسلامية في صدر الإسلام ما يعززون به تصوراً ينطلق من أن الحرب والقتال وليس السلم هو الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم.

ثمة نصوص غزيرة كتبها أنصار هذا الاتجاه الاقصائي المتطرف في تأويله للنصوص القرآنية وفي سجاله للدفاع عما يعتقده، إلا أن الأطروحة الجهادية ذات البعد المفتوح ما كان يمكن أحيائها اليوم لو لم يتم شحنها بخطاب سياسي شكل الأساس الذي اتكأ عليه هذا التيار الذي نبت على ضفاف الهزيمة والتراجع الذي أصاب الأمة[4].

واجهت هذه الأطروحة اعتراضات فقهية وسياسية وموضوعية قديماً وحديثاً، فصاحب المنار الشيخ رشيد رضا يشير إلى أن آية السيف وبقية الآيات في سورة التوبة غير ناسخة لغيرها من الآيات في بقية السور القرآنية، ويستند في ذلك إلى السيوطي. إذ يعتبر أن لهذه الآيات حكماً يسري في ظرف معين. ويضيف رشيد رضا ما يفيد أن السبب الداعي للقتال هو "الحرابة" ويقول أن الدعوة إلى مقاتلة المشركين هي رد على مبادرة المشركين بالقتال، وأن المقصود بالآيتين مشركي جزيرة العرب وليس كل مشركي الأرض، وهو ينقل عن أستاذه الإمام الشيخ محمد عبده أن القتال الواجب في الإسلام إنما شرع للدفاع عن الحق وأهله وحماية الدعوة ونشرها، لذلك اشترط فيه أن يقدم عليه الدعوة إلى الإسلام[5].

يذهب الإمام الأكبر محمود شلتوت إلى أن الإسلام لا يرى أن مجرد المخالفة في الدين تبيح العداوة وتمنع المسالمة والتعاون في شؤون الحياة، ويناقش فرضيات وتفسيرات أطروحة القطيعة مع الآخر[6]، وهو ما يتفق معه أيضاً الشيخ محمد الغزالي الذي يعتبر في سجاله الرائع مع المتطرفين أن بعضهم وقع في "التحريف" وخاصة حين يستشهد بأمثلة وبآيات مثل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾[7] ويقول أن هذه الآيات واردة في المعتدين على الإسلام المحاربين لأهله، ولا يجوز الاستناد إليها للدعوة إلى مقاطعة غير المسلمين[8].

والواقع أن اغلب الفقهاء أجمعوا على أن شرعية الآخر ليست مبنية على اعتقاده، حقاً كان أم باطلاً. تلك الشرعية مبنية على الحقيقة الكلية التي قدرّها الإسلام من البداية، وهي أن البشر، لمجرد أنهم بشر، لهم حقوقهم في الحصانة والكرامة والحماية. والنصوص التي تشير إلى تكريم الإنسان كثيرة، وهي التي بنى

---

[1] – التوبة: 36.

[2] – التوبة: 29.

[3] – التوبة: 5.

[4] – أنظر: عبد الغني عماد: الجهاد والمقاومة: اشكالية المفهوم والحرية، بحث ضمن كتاب الحوار القومي – الإسلامي المتضمن بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2008، ص625.

[5] – رشيد رضا: تفسير المنار، ج10، ص255، وهذا ما يذهب إليه أيضاً راشد الغنوشي في كتابه: حقوق المواطنة، حقوق غير الملم في المجتمع الإسلامي، ص99.

[6] – الإمام محمود شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة، بيروت – القاهرة، دار الشروق، ط15، 1988، ص44– 45.

[7] – المائدة: 51.

[8] – الشيخ محمد الغزالي: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، القاهرة، دار الفكر الحديثة، ط3، 1965، ص40.

عليها الفقهاء مختلف اجتهاداتهم، والتي كان فيها إعلاء كرامة الإنسان من المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية، بحيث يعد المساس بهذه الكرامة انتهاكاً لهذه المقاصد وعدواناً على حق من حقوق الله[1].

وهذا ما يذهب إليه المرجع الشيعي الشيخ محمد مهدي شمس الدين الذي يقول: "الجهاد الذي هو ركن من أركان الإسلام هو من طبيعة دفاعية محضة. أن الذي يدعو للقتال هو "الحرابة". وهذا يعني أن الكافر المحض إذ لم يكن محارباً، ولم يكن معتدياً ولم يكن معلناً عداءه، لا يوجد أي سبب يمنع معايشته ومعاملته بالحسنى على أساس عدم العدوان من جهة ومبدأ "البر" الذي ورد في سورة الممتحنة[2]. وهو يعتبر أن "الاغيار" في العقيدة لهم مكانهم الطبيعي وليس مكانهم المقرون بالمنّة. والحديث عن التسامح يكرّس المفاضلة، بحيث يكون المسلم متفضلاً على غيره. لذلك يرفض الإسلام هذا الأمر ويعامل الآخر بما يقتضيه حقه، لأن الإسلام سمح بطبعه يتسع للأغيار، معتبراً أن الكرامة هي ثمرة من ثمرات تكريم الله عز وجلّ للإنسان الذي بطبعه يربأ بنفسه عن الوقوع تحت منن الإحسان وينشد الندية العادلة في التعامل والعيش الكريم[3].

ولا ريب في أن بعض التيارات الحزبية الإسلامية قد شوّهت معنى "الجهاد" وقامت بتسييسه وأدلجته بما يخدم أجندات سياسية وحزبية، والأخطر من كل هذا قيامها باختزاله في بعد حربي وقتالي في الداخل الإسلامي بما يعمق الانشقاقات ويفجر الصراعات بين الجماعات الإسلامية التي تنتمي إلى مدارس ومذاهب متنوعة فسمحت لنفسها بإصدار فتاوى جهادية لا تنتمي إلى روح الخطاب القرآني، بقدر ما تستند إلى اجتهادات بشرية متراكمة انتشر بعضها في الديار الإسلامية مقدماً قراءة جامدة للجهاد، بل متعسفة وظالمة، يطغى عليها الهوى والتعصب، تستخدم هذه الفريضة العظيمة كعدّة إيديولوجية وسياسية وحزبية، تستحضر فيها قصص تراثية غامضة المصدر والإسناد، وحكايات متتالية مفرغة من مغزاها وسياقاتها تبهر العامة وتغرس في عقولهم ووجدانهم ما يوحي بأن الجهاد في الإسلام يعني "المسايفة" أو حمل السلاح والقتال فحسب. في حين أن الجهاد كقيمة دعوية ومنظومة معرفية، هو شكل من أشكال التقوى والعبادة، فضلاً عن كونه مفهوماً مركزياً على المستوى الأخلاقي والسلوكي، يفترض عدم اختزاله بالعنف والقتل وتحويله إلى قيمة تحض على الموت. فالجهاد القتالي فريضة وواجب يقوم به المسلمون كرهاً وليس حباً بالقتل وسفك الدماء، باعتبار خيار الجنوح إلى السلم أفضلية مقدمة على غيرها.

بين الإيمان والتكفير: محددات وضوابط

الكفر في اللغة هو الجحود والإنكار والتكذيب، أما الإيمان فهو "التصديق". الكفر في العقيدة هو الجحود والإنكار والتكذيب لأركان الإيمان وأحكام الإسلام الثابتة القطعية، فمن أنكر أصلاً أو حكماً قطعياً ثابتاً لا تأويل فيه ولا ظنّ، وأصرّ على ذلك بعد البيان وإقامة الحجة والدليل فقد أخرج نفسه من دائرة الإيمان.

الإيمان في العقيدة هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان وقد أجمع الفقهاء على أن المؤمن لو صدق بقلبه وأقر بلسانه، وامتنع عن العمل مستحق للوعيد. بل إن مرتكب الكبيرة لا يخرج عن الإيمان بل هو في مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه، ففي القرآن: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن

---

[1] – فهمي هويدي: الإسلام والديمقراطية، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، 1993، ص27.

[2] – الآية: 8.

[3] – محمد مهدي شمس الدين: حوار حول الإسلام والعلمانية والشورى والديمقراطية والمجتمع المدني، بيروت، مجلة الحوار، السنة التاسعة، العدد 34، 1994، ص23– 24.

شاء﴾[1]، وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلّم: "إن الله حرم على النار من قال لا إله إلاّ الله، يبتغي بذلك وجه الله"[2].

إذن الإيمان تصديق بالقلب وإقرار باللسان ومنهم من زاد "العمل". وفي ذلك قال الحسن البصري: "ليس الإيمان بالتحلي ولا التمني لكنه ما وقر في الصدور وصدقته الأعمال". ومن المتفق عليه أن الإيمان يزيد وينقص فهو ليس عند الناس سواء، فهم به يتفاضلون كما في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلّم: "الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلاّ الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق"[3].

وقد إحتاط الفقهاء كثيراً في الحكم بالكفر على شخص أو جماعة، فالحكم على مسلم بالكفر يرتب مفاعيل أهمها: إهدار دمه، وتنفيذ حكم المرتد فيه، ووجوب التفريق بينه وبين زوجه، وخروج الأولاد من ولايته، وعدم دفنه في مقابر المسلمين، والحكم عليه بالخلود في النار، وإمتناع التوارث بين وبين أقاربه. وكان علماء السلف يحتاطون حتى في المواقف التي يكون فيها الكفر صريحاً، فقد كانوا يحكمون أحكاماً عامة ولا يكفرون فرداً بعينه، فيقولون مثلاً: من أنكر حرمة الخمر فهو كافر (بدون تسمية الشخص).

ومما لا شكّ فيه أن الخطأ في إثبات الكفر أفضل بكثير من تكفير مؤمن وإهدار دمه. ويقول الإمام الغزالي رحمه الله: "التكفير حكم شرعي، يرجح إلى إباحة المال وسفك الدماء والحكم بالخلود في النار، فتارة يدرك بتعيين وتارة بظن غالب، وتارة يتردد فيه، ومهما حصل تردد فالوقوف فيه أولى، والمبادرة إلى التكفير إنما تغلب على طباع من يغلب عليه الجهل.."[4].

وقد قال علماء تفسير القرآن "إن الأحكام تناط بالمظان والظواهر، لا على القطع وإطلاع السرائر، فالله لم يجعل لعباده غير الحكم بالظاهر"[5]. فلقد ثبت أن الرسول عليه الصلاة والسلام تلقى بيعة نفر من أهل المدينة على الإسلام وهم منافقون فلم يحاول أن يستجلي سرائرهم بل وكلها إلى الله الذي أنزل عليه قرآناً يتلى في شأنهم ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾[6]. ونحن نتذكر خالد بن الوليد رضي الله عنه وقد قتل رجلاً ينطق بالشهادتين والسيف على رقبته ومعتذراً عن ذلك بأن نطقه كان خوفاً فأجابه الرسول عليه الصلاة والسلام غاضباً: "فهلا شققت على قلبه؟".

النطق العلني بالشهادتين يدخل المرء في جماعة المسلمين، فلقد روى عبادة بن الصامت رضي الله عنه فقال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام "من شهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وشهد أن الجنة حق والنار حق وأن البعث حق، أدخله الله من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء"[7]. وفي الصحيح أيضاً عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: "من قال لا إله إلاّ الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عزّ وجلّ"[8] وكذلك نذكر الحديث الشريف: "فإن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلاّ الله يبتغي بذلك وجه الله"[9]. وفي الحديث الذي رواه عثمان بن عفان رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم ما يقطع بذلك "من مات وهو يعلم أنه لا

---

[1] – النساء: 48.

[2] – متفق عليه من حديث عتبان بن مالك.

[3] – متفق عليه واللفظ لمسلم.

[4] – القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي، مكتبة الجندي، ط2، 1970، انظر فيصل التفرقة، ص146– 147.

[5] – الإمام القرطبي:الجامع لأحكام القرآن، طبعة دار الكتب المصرية، ج5، ص 339.

[6]– سورة التوبة:101.

[7] – أخرجه البخاري ومسلم.

[8] – أخرجه مسلم في صحيحه.

[9] – المصدر السابق.

إله إلاّ الله دخل الجنّة"[1]. وعن أنس بن مالك أن رسول الله عليه السلام قال: "من لقي الله لا يشرك بـــه شـــيئاً دخل الجنّة"[2].

سياق ما ذكرنا من أحاديث يدل على أن من نطق بالشهادتين قد أسلم ولا يخرجه عـــن الإســـلام معصـــية يرتكبها أو نية يستبطنها، ذلك هو الإسلام الذي قبله الرسول عليه الصلاة والسلام من الناس.

ويضعنا الخطاب القرآني أمام مفارقة تبين العجز الإنساني عن الهداية ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكـــن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾[3]، فإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يهدي كيف يستطيع أن يكفر أو يعـــين الحد الفاصل بين الكفر والإيمان؟.

ثقافة الدعوة بين اليسر والعُسر

وأهم ما يميز ثقافة الدعوة في الإسلام أنها ثقافة الرحمة والحوار. فإن صفة "الرحمن" تكررت في القـــرآن 239 مرة، وصفة الرحيم/ رحيم/ رحيماً وردت 226، وصفة الغفور/الغفار/غفوراً وردت 94 مرة، بينما نجد صفة "شديد العقاب" وردت 13 مرة وصفة "ذو انتقام" وردت 3 مرات. ما يدل أن الخطاب القرآني المقـــرون بالرحمانية والمغفرة يقدم الرحمة على العذاب : ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمـــل مـــنكم ســـوءاً بجهالة ثم تاب من بعد وأصلح فانه غفور رحيم﴾[4] لذلك أوصى النبي (صلعم) في الحديث الشريف "يسروا ولا ولا تعسّروا وبشّروا ولا تنفروا"[5]، وقوله "إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته"[6]. وفـــي ذلك جاء قول الله تعالى ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾[7].

وروي حول ذلك عن رسول الله عليه الصلاة والسلام "أنه ما خيّر بين أمرين إلاّ اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً" متفق عليه. وقال لمعاذ لما أطال القراءة بالقوم أثناء الصلاة: "أفتّان أنت يا معاذ؟"[8]. ومعناها أن التشـــدد على الناس فتنة لهم، وإذا جاز للإنسان أن يشدّد على نفسه فلا يجوز أن يفرض ذلك على الناس فينفرهم مـــن دين الله من حيث لا يشعر.

إذن التيسير مطلوب في كل زمن لكنه في زماننا اليوم ألزم وأكثر إلحاحاً، فقد قرّر الفقهاء أن المشقّة تجلب التيسير وأن الأمر إذا ضاق إتسع، وأن عموم البلوى من موجبات التخفيف.

وهنا لا بد أن نستغرب كيف يجيز بعض الناس لنفسهم إسقاط إعتبار المسلم في أمور ليس فيها إجماع على تحليل أو تحريم بشكل يقين، أو في ما عليه إختلاف أهو واجب أم سنّة؟.

نذكر ما جاء في خواتيم سورة النحل خطاباً للرسول عليه الصلاة والسلام ﴿وإدع إلى سبيل ربِّك بالحكمـــة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[9] وخاطب تعالى رسوله ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لإنفضوا من من حولك﴾[10].

---

[1] – رواه وأخرجه مسلم وقال العلماء أن العلم هنا يقتضي العمل بمضمون هذا العلم.

[2] – رواه البخاري في صحيحه وأحمد في مسنده.

[3] – سورة القصص: 56.

[4] – الانعام: 54.

[5] – رواه مسلم في صحيحه.

[6] – رواه أحمد وهو صحيح.

[7] – البقرة: 185.

[8] – رواه البخاري ومسلم.

[9] – النحل: 125.

[10] – آل عمران: 159.

ففي مجال الدعوة لا مكان للخشونة ولا مكان للعنف وفي الحديث "إن الله يحب الرفق في الأمر كله"[1] وكذلك "ما كان الرفق في شيء إلاّ زانه ولا كان العنف في شيء إلاّ شانه"[2].

وقد ذكر الإمام الغزالي أن رجلاً دخل على الخليفة المأمون العباسي يأمره وينهاه فأغلظ له في القول، وكان المأمون على قدر كبير من العلم فقال له: أرفق فإن الله بعث من هو خير منك إلى من هو شر مني، بعث الله موسى وهارون وهما خير منك إلى فرعون وهو شرّ مني وكانت وصية الله لهما ﴿فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾[3].

والواقع يعلمنا أن الأسلوب الخشن يضيّع المضمون الحسن والإمام الغزالي يقول "لا يأمر بالمعروف ولا ينهي عن المنكر إلاّ رفيق في ما يأمر به رفيق في ما ينهي عنه، حليم فيما يأمر به حليم في ما ينهي عنه، فقيه في ما يأمر به، فقيه في ما ينهي عنه"[4].

بعض الناس يخلط بين الصراحة في الحق والخشونة في الأسلوب مع أنه لا تلازم بينهما والداعية الناجح من يوصل الدعوة بألين الطرق وأرقّ العبارات دون تفريط في المضمون فالعنف والتهجّم نقيضان للحكمة والموعظة الحسنة.

ما العمل ؟ كيف نواجه التطرف؟

هناك إجابة تقليدية تتمثل في استخدام الوسائل الأمنية والقمعية والسياسية والتي ثبت عقمها. فكل الوسائل الأمنية والسياسية يمكن أن تكون فاعلة على المدى القصير، إلا أنها على المدى الطويل لا تنجح في استئصال العلة الأساسية المنتجة لهذه الظاهرة التي عادة ما تكون متصلة بجذور ثقافية من خلال تأويلات مغالية للنصوص، وبجذور اجتماعية ناتجة عن ارتفاع معدلات البطالة والأمية وفشل مشاريع التنمية وغيرها من المسائل المتعلقة بغياب الحريات والعدالة والمساواة بين المواطنين.

وفي تقديري أن من ابرز الأسباب إضافة لكل ذلك هو اختراق الفكر المتطرف لنظام التربية والتعليم بكل مؤسساته. وهو اختراق يساعده أن التعليم في بلادنا لا يزال في غالبه يقوم على التلقين وليس على الفهم والمساءلة والحوار بين الأفكار. أي أنه يقوم بصياغة العقل الاتباعي لا العقل النقدي، وهذا ما تقوم بترسيخه بصورة مباشرة الأنظمة المستبدة، لأن العقل الاتباعي يتكيف مع مفاهيم الطاعة والانقياد، اما العقل النقدي فمتمرد ومتساءل بطبعه.

لا شكّ أن المؤسسة التربوية العربية قد التقطت بشكل أو بآخر جرثومة "التعصّب" وآفة "التطرّف" الديني، وهذا معناه أن المؤسسة التربوية بدلاً من أن تساعد المجتمع العربي على المواجهة العقلانية فإنها أضافت إلى مشكلاته تحديات جديدة.

فالتعصّب ينتقل من جيل إلى جيل، ومن الكبار إلى الصغار، إذ يتعلّم كثير من الأبناء التعصّب من آبائهم وأساتذتهم. وتجد قيم التعصّب تعزيزاً لها في إطار القوانين والمؤسسات والعادات، فالتعصّب يتأسس في الغالب من تصورات مسبقة تأخذ طابع النمذجة (التصورات النمطية Stereotypes)، حيث يتمّ تعميمها على

---

[1] – أخرجه البخاري في صحيحه.

[2] – متفق عليه.

[3] – سورة طه: 44.

[4] – الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الإمام الغزالي.

كل أفراد الجماعة موضوع التصنيف، يكتسبها الطفل خلال تنشئته المبكرة، ومعها يصبح الآخر متّصفاً بالغدر والخيانة والكفر والمذلّة الخسّة واللعنة.

التصورات النمطية المتطرفة عامة هي تصورات مشوهة لا تعبّر عن الواقع حيث دائماً هناك فجوة، قد تكون صغيرة أو كبيرة، بين الحقيقة الموضوعية من ناحية وبين ما يذهب إليه التصور الخفيّ من ناحية ثانية. ومع ذلك فإن التصورات النمطية شائعة بين الأفراد والجماعات، لأن مثل هذه التصورات تعفي حاملها من مشقّة التعامل مع تفصيلات لا حصر لها في الواقع الإنساني والإجتماعي الذي تعايشه وتعيش فيه[1]. في هذا المجال الكراهية تصبح احد ابرز منتجات التطرف والتعصب، ومن النادر ان يخالط شعور محبة لمن يخالف المتطرف بالرأي او المعتقد، والعلاقة بينهما (التطرف والكراهية) ليست جدلية بحيث يتعذر احيانا معرفة اي منهما مقدمة او نتيجة .

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المجال هو: كيف يمكن للمؤسسة التربوية العربية أن تعززّ قيم التسامح في مواجهة التعصّب والتطرف في مجتمعات لم تتعزز فيها تقاليد الديمقراطية بعد، وخاصة تقاليد الإعتراف بالرأي الآخر والتمثيل الشعبي ومشاركة المجتمع المدني، حيث تغيب عملياً مبادئ حقوق الإنسان، بل والأطر التنظيمية الناظمة للتعددية السياسية في المجتمعات العربية.

ومن يتأمل بعمق في مناهج الحياة المدرسية في بعض البلدان العربية يجدها متشبعة بصور من العنف والتطرف في بعض المجالات، فالتاريخ الأموي والعباسي الذي يدرس في المرحلة الإعدادية يبرز الجانب الدموي والصراع بين الحكام وإخوانهم وأبنائهم من أجل الوصول إلى السلطة والحكم، وهكذا تتم غرس قيم العنف في نفوس الطلاب في وقت مبكر من تاريخ نموهم النفسي والتربوي. ألم يكن لهذه التربية التي كانت تصرّ على تلقين كل طفل خطبة الحجاج عن الرؤوس التي أينعت وحان قطافها، علاقة بالإرتداد السريع إلى التخوين والتكفير، ومن ثمّ إلى العنف حين الإختلاف بالرأي حول أي قضية أو موقف.

المشكلة الأخرى تتمثل في ازدواجية نظم التعليم، فضلاً عن المحتوى والمناهج، بحيث نجد تعليماً مدنياً في جانب وتعليماً دينياً خالصاً في جانب آخر، لا تشرف عليه المؤسسات الرسمية، بل بدأ يتخصص شيئاً فشيئاً، بحيث أصبح للمذاهب والجماعات والأحزاب الدينية مدارسها الخاصة، ولنا أن نتصور في ظلها أي نوع من التعليم والثقافة الدينية يجري ترويجها.

والمدرسة العربية هي إنعكاس لكل ذلك ففيها مبدأ الطاعة العمياء حيث إعادة إنتاج قيم ومعايير المجتمع التي تحافظ على وضعية القهر الإجتماعي، حيث يستهلك التلميذ سلبياً كل التميّزات الدينية والقيمية والإيديولوجية التي يزخر بها مجتمعه. وتتكامل المدرسة مع أساليب التنشئة الإجتماعية السائدة لتبني منظومة قيم متكاملة تكمل المناخ التسلطي العام حيث يفرض الآباء على الأبناء أنماط سلوكهم وحركتهم ولا يسمح لهم بإبداء الرأي أوالإعتراض.

يتبيّن أن التربية يمكن أن تلعب دوراً محورياً وفي غاية الأهمية والموضوعية في قيام منظومة أمان قيمية ترسّخ قيم التسامح والحب والحنان والتساند والدعم النفسي والتعزيز والمساندة والتفاهم والحوار بين أطراف العائلة، خاصة بين الآباء والأبناء، والتربية على الحوار والإعتراف بالرأي الآخر والحقّ بالإختلاف، وهذا هو الجوهر الأخلاقي للدين الإسلامي الحنيف.

[1] – علي أسعد وطفة وعبد الرحمن الأحمد: التعصّب ماهية وإنتشاراً في الوطن العربي، عالم الفكر، العدد 3، المجلد 30، يانير– مارس، 2002، ص 86.

في كل الأحوال يبقى التطرّف والتعصّب من أشدّ الأمور خطراً والتي تهدد المجتمعات بالتمزّق والتي قد تفضي إلى إشتعال الحروب بين الناس، وهو يحتاج إلى بيئة حاضنة يعيش فيها ويعتاش منها، وقد كان الحرمان والفقر وفشل مشاريع التنمية من أبرز العناصر والعوامل المساعدة على نمو التعصّب والتطرّف. وهذا يعني أن محاربة هذه الظاهرة ومكافحتها ليس عملاً أمنياً بقدر ما يجب أن يكون فعلاً تنموياً مستمراً على المستوى البشري والعمراني والثقافي والتربوي.

فالتطرّف والتعصّب ظاهرة مرضية، وأفضل علاج لها هو الوقاية الصحيحة. والوقاية الصحيحة يجب أن تركز على التعامل العقلاني الذي يستهدف تصحيح الإختلالات الإقتصادية والسياسية والإجتماعية وإشاعة الفكر النقدي والمشاركة والشورى والديمقراطية في كافة مجالات الحياة وبدءاً بالمؤسسة التربوية.